مرتكزات تشكيل الرؤيا في شعر محمد بن علي السنوسي "قراءة نقدية"

كريم أحمد أبو سمهدانه

كلية الآداب والعلوم الإنسانية قسم اللغة العربيةجامعة جازان

المُلخّص

يجد الباحث بأن العلاقة بين القديم والجديد وثيقة الروابط بفعل التواصل الإنساني في شتى المجالات الفكرية، والدينية، والسياسية، والأدبية، والتاريخية، وكذلك قانون النشوء والارتقاء الأدبي، هذا الشيء استثمره محمد بن علي السنوسي في أعماله الشعرية في بلورة وتشكيل الرؤيا الأدبية، حيث اعتمد (السنوسي) على ذلك في تشكيل هذه الرؤيا الفكرية على مرتكزات كثيرة كان في مقدمتها: الجانب التّاريخي، والدِّيني، والحاضر الاجتماعي الذي يعيش فيه، والحاضر الأدبي، والماضي المشرق بكل حيثياته.ومن ذلك الشيء جاءت فكرة الدراسة والبحث.

والشَّاعر السَّنوسيّ في هذا الجانب الأدبي يكشف لنا بأنَّ هذه الدَّعائم الأدبيّة في العمل الأدبيّ جاءت وليدة الحاجة من أجل بعث، وتحريك، وتكوين المضمون الأدبي الذي يعبّر بواسطته عن جراح الذّات والجماعة، وما يصاحبه من تصدعات للواقع الذي يعيش فيه هذا من جانب، ومن جانب آخر يجسّد من خلاله كلَّ ما يحيط بالمجتمع من قهر اجتماعي، وروحي نتج عن اختلال القيم، والفساد الاجتماعي، ويفضح من خلاله طرق الاستبداد، وضياع الحقوق، وغياب العدل بأسلوب أدبي صَرْف.

الكلمات المفتاحية: تشكيل الرؤيا – الشعر – السنوسي – قراءة نقدية – الارتقاء الأدبي

مُقدّمة

الحمد لله الذي علا زجل الملائكة في عالم الملكوت بحمده، ونظمنا في سلك العبودية فوقف كل منا متأدباً عند حده، أحمده حمداً يقوم وزنه بالقسط ولا يخسر الميزان، وأشكره شكراً تقوم لنا بركته بمعرفة قواعد الإيمان....أمَّا بعد .

نجد بين الأدب والبيئة صلة وثيقة . والبيئة نعني بها الظروف الاجتماعيّة، والاقتصاديّة والسِّياسية والفكرية، والثقافية الَّتي كونت المخزون الإبداعيّ لدى الشَّاعر . لا تنفصم مهما تعاورتها أيدي الزمن، هذه الصِّلة هي كصلة الشَّذا بالزَّهر، والنُّور بالضوء، والحرارة بالنَّار، وهذا الشِّيء نلمسه عند الشاعر السُّعودي (محمد بن علي السَّنوسيّ)[1]في أعماله الشِّعرية الكاملة، ولكن مهما اختلفت الآراء وتعددت المشارب، والمذاهب في هذا الموضوع بين مؤيد ومعارض، موافق، ورافض، مقلد ومجدد، يبقى القديم رغم كل ذلك هو الأب الشرعي لكل أدب جديد، يورّثه الكثير من جيناته الوراثية بكل تفاصيلها، فالماضي وما يحمله من موروث ثقافي شمولي، هو البنية الذِّهنية الَّتي تتفاعل بين العقل الطَّبيعي، والعقل المستفاد، والعقل المبدع الخلاّق في تشكيل الرُّؤيا الأدبيّة.

لذلك فالعلاقة بين القديم، والجديد وثيقة الرَّوابط، محكومة بفعل التَّواصل الإنسانيّ، وقانون النُّشوء والارتقاء الأدبي، وهذا الشّيء استثمره (السَّنوسي) في إبداعه الشِّعري، وتشكيل رؤياه الأدبية والفكرية، ومن هذا الجانب أتت فكرة الدراسة، لتناقش في أبنيتها الأساسية مرتكزات الرؤيا في التشكيل الإبداعي لدى

(١) محمد بن علي السنوسي من شعراء المملكة العربية السعودية المعاصرين، ولد في جازان عام (١٣٤٣هـ)، وتوفي عام (١٤٠٧هـ)، عمل طيلة حياته في الوظيفة الحكومية، حيث شغل منصب مدير جمارك جازان، ثم رئيسا للبلدية فيها، ثم مديرا لشركة الكهرباء، وبعد تقاعده اختير رئيسا لمنصب نادي جازان الأدبي، ظهر نبوغه الأدبي مبكرا ، حيث أبدع في نظم الشعر وتألق فيه في مختلف الموضوعات، وترجمت أعماله إلى لغات مختلفة منها الألمانية والانجليزية.

البريد الإلكتروني : Ab.kareem@yahoo.com
ردمد : ١٦٥٨-٦٠٥٠

(السنوسي) في أعماله الشّعرية الكاملة من خلال منهج وصفي تحليلي اعتمد في المقام الأول على النص الشعري الذي أبدعه (السنوسي)، والمقام الثاني بعض الدراسات النقدية التي لها مساس في هذا الجانب وهي مثبتة في حواشي الدراسة، ومن خلال هذا المنهج انقسمت الدراسة إلى عدة محاور ، المحور الأول: الديني، الثاني: التاريخي، الثالث: الحاضر، الرابع: الأدبي، والخاتمة، وقائمة المصادر والمراجع.

المَدْخلُ:

الشِّعر لديه قول لازم للفعل، والواقع الذي يسيطر على حياته.

فقول الشعر وإبداعه عند الإنسان العربي فطرة صادرة عن واقع فني، أو سياسي، أو اقتصادي، أو اجتماعي، أو جمالي، ليكشف فنيا عن طبع أصيل في امتلاك ناصية إبداعه، وإحساس مرهف رقيق في إنشاء بنائه الفني، وذوق رفيع في تلمس مضان تأثيره في المتلقي، فهو " ديوان العرب ومنتهى حكمهم ، به يأخذون، وإليه يصيرون، وهو علمهم الذي لم يكن لهم علم أصح منه"(ابن سلام الجمحي، ١٩٧٤م). فالشعر يكشف موضوعيا عن وعي، وعقل راجح لمعرفة الواقع في التعبير عن حضور الفرد الشاعر في لغة الجماعة وفكرها انطلاقا من إبداعه، ولغته الأدبية الخاصة به أولا، ولغة وأدب وفكر الوعي الجمعي الصادرة عن الحدس الفني الصادق، والإحساس المرهف بالانتماء إلى الأشياء، والموجودات التي تحيط به من قبل وبعد العمل الأدبي ، أو الإبداع بشكل عام ثانيا " فهو أداة فعالة في تكوين الحياة، والواقع حسب الرؤيا التي يصدر عنها" (محمد مهدي، ١٩٥١م).

فالأرضية الاجتماعية بكل مكوناتها التي يزخر بها الواقع المادي المحيط بالشاعر، هي التي تحبل بالفكر، عندها يتكون التَّصور المبدئي لهذا الفكر الأدبي، والعملية الإبداعية، والرؤيا التي ينطلق منها الأدب، فينبثق من الأرض إلى الوجود، ليجسم في انبعاثه صورة هذا الفكر في استقطاب، وتجريد ألوان الموجودات التي تحيط بالشاعر، ليفسر بعدها تجاورها، أو تنافرها، أو صراعها من أجل تشكل أو تحول ما، لتكون النتيجة من هذا التحول، أو التداخل وحدة متكاملة بين الحواس تتشابك على رحابها المشاهد، والألوان، والمسموعات، والمشمومات، عندها تتناغم وتتحاور، فتؤكد كلية الواقع، والرُّؤيا الأدبيّة الَّتي تنطلق منه العملية الإبداعيّة(نعيم اليافي،١٩٩٣م). لذلك فإنَّ المسافة بين الشِّعر، والفكر تقاس بوحدتي اللفظ والخيال، إذ أن العقل هو ذات العقل القادر على الخلق، والابتكار، والتوليد كما يرى (تشومسكي) في نظريته عن خواص اللغة (عبد القادر الفاسي، ١٩٨٦م). إلا أن مجال الشعر يستدعي زيادة على ذلك الخلق، والتوليد، والابتكار اللفظي والخيالي؛ لأن الخيال هو أداة التحليق من عالم الواقع المعاش إلى الرؤيا الإبداعية، وآفاق التَّجنيح الشِّعري، فالعملية الإبداعيّة وتطورها، ونموها تفسر لنا حتمية العلاقة بين النَّص ومحيطه، وتربط بين الواقع والإبداع، لكونه انعكاسا لعلاقة الإنتاج، ونتيجة حتمية للبيئة والمناخ(سيد البحراوي،١٩٩٢م) ، وهذا ما نلمسه عند شاعرنا (محمد بن علي السَّنوسيّ) في أعماله الشِّعريَّة الكاملة، حيث جاءت الرُّؤيا لديه نابعة من الواقع في جانب، وممزوجة بالتُّراث وما يحمله من كنوز من جانب آخر، للاستعانة به في تَشكيل معالم نصِّه الشِّعريّ المعاصر ، لذلك وجد (السَّنوسيّ) في التُّراث بعض النَّماذج الَّتي تصلح لمحاكات الوَاقع، ووجد فيه ملجأ وملاذا يُعبّر بواسطته عن واقع جراح الذَّات والجماعة، وتصدُّعات الواقع، كما يُجسِّد من خلاله القهر الرُّوحي النَّاجم عن اختلال بعض القيم والعادات، فالتُّراث عنده وفي رؤياه الأدبيَّة معين على الخروج من ألم الواقع إلى رحاب آفاق الخيال الواسعة النَّقية، يستمدُّ منه قواه، ويتزوَّد بقيمه لمجابهة الواقع " ليثير به القارئ حتَّى يتفاعل مع النَّص الشِّعري من الدَّاخل، ويفتح فضاء التَّأويل لدى المتلقي "(أحمد حساني،١٩٩٤م).

ولهذا زاوج (السَّنوسيّ) بين حمولة النَّص التُّراثيّ، وتجليات الواقع المعيش ليشير من خلاله إلى استمرار الماضي، والحاضر، والمستقبل من جانب، ويعكس التَّواصل والاستمراريَّة من منطلق الوعي في عمله الإبداعيّ من جانب آخر، عندها يتحقق التَّحاور في نصِّه الشِّعري بُغية الوصول إلى تفرد الرُّؤيا وخصوصيتها،

فالسَّنوسيّ) أعطى بذلك لنصِّه الشِّعريّ المجال بأن يتحمَّل بشكل مباشر، أو غير مباشر بشحنات وحمولات دلاليّة، ولغويّة، وفكريّة بمنظور معاصر، فهو يصّور العادي واليوميّ، والإقليميّ، والدِّيني، كنماذج وأنماط، وهو بذلك يتفق مع قول(داني هويمان) الَّذي يتركَّز في هذا المجال، حيث يقول: " كلُّ الأعمال الفنيَّة تعبِّر عن السيكولوجيات الاجتماعيّة، ومعتقدات النَّاس إزاء الواقع، ولكن بصورة تعبيريَّة مختلفة، وهذا الاختلاف أساس تصنيف الفنّ"(هويمان، ١٩٧٢م).

وثمة أمر مهم يجب الإشارة إليه في هذا المدخل نلمسه عند (السَّنوسيّ) في العملية الإبداعيّة الممتدة في أعماله الشِّعريّة الكاملة، فنجد أنَّ هذه العملية الإبداعيّة وما تحمله من رؤيا وليدة التفكير العميق بالنفس، والحياة، والخلود، والموت، وهذا التَّفكير لدى (السَّنوسيّ) رسمه واقع الحياة المادية التي طغت على كلّ شيء، لذا نجد (السَّنوسيّ) قد ارتدّ من خلال هذا الواقع إلى ذاته ليصنع لنفسه عالما من الخيال يلوذ به فرارا من هذه الحياة المتعبة، يحلم فيه بالدَّعة، والطَّمأنينة ولو بعض اللحظات ليعود بعدها إلى عالمه الواقعي، وقد حَمل معه نشوة الحلم ليسيل به المداد أدبا وشعرا. فإبداعه وما يحمله من رؤيا يتجه نحو المجتمع، لترسم معالمه في نفي التَّناقض، ومسح الصراع، وإذابة الفروق، فالسَّنوسي) لا يزيف الواقع وإنما يجعله واقعا تجري سننه على كافة الطبقات فهذا كما يقول (الشوباشي): " يجلي للفرد ارتباطه بغيره، وارتباط كل مشكلة من مشكلاته الخاصة بالمشكلات العامة، بل يتضح له الهدف المشترك بينه، وبين الجموع في سبيل تحقيق حياة أفضل للجميع "(محمد مفيد، ١٩٧٠م). وبذلك يكون واقع الإبداع وما يحمله من رؤيا عند (السنوسي) في مجمله محصلة لجميع العلاقات المتشابكة بين الذَّات والموضوع، لا الماضيَّة فحسب وإنَّما الحاضرة والمستقبلية منها كما بينت سابقا؛ لأن (السنوسي) أخذ على عاتقه في وعيه العقلي مقولة (أرسطو) في فنّ الشِّعر التي تقول : " إذا كان المؤرخ يسجّل ما حدث، فإنَّ الشَّاعر يتوق لما يمكن أن يحدث، ويبقى على الناقد أن يُميّز بين الممكن والمحتمل إزاء هذا الواقع"(أرسطو، ١٩٧٣م).

فالتَّفاعل بين (السَّنوسي) والواقع الإبداعي وما يحمله من رؤيا، وصل إلى غاية الامتصاص للمشاهد، والأحداث، واندماجها التَّام ، ممَّا أتاح لإبداعه الشِّعري انعكاسا أكثر أمانه في جوهره للواقع والوسط الذي يعيش فيه، ومن هنا فرض الواقع عليه المشاركة في البناء الخلاق لعالمه، فهو بهذا النسق الأدبي، والرؤيا التي يحملها، يتفق مع قول الناقد (كمال وادي) الذي يصف حالة المبدع في العملية الإبداعية فيقول: " الأديب يرصد حركة واقعه ليصور نضجه بعمق الفكرة، وجودة المضمون، وثراء الخيال، وروعة التّشكيل الأدبيّ "(طه وادي، ١٩٨١م)، وهذا ما ستكشف عنه الدِّراسة في مفرداتها الآتية التي تشمل أثر الماضي، والحاضر وما يحملانه من مرتكزات أساسية في بناء الرؤيا لدى الشَّاعر (محمد بن علي السنوسي) في أعماله الشعرية والأدبية.

أولا: مؤثرات الماضي :

الشعر العربي الحديث حديقة ممتدة الظلال، متنوعة الأزهار يتصل بالماضي الذي لن يعود، ولا يمكن أن ينفصل عنه بأي حال سواء أكان شعرا ملتزما بعمود الشعر، أم خاضعا للتجديد، أو التطوير كما هو الحال في شعر التفعيلة، فالماضي الديني، والحضاري، والأدبي وما يحمله من مؤثرات عند (السنوسي) له قدسية يعززها التواصل الزمني في أدبه، ليفضي عنده إلى مرحلة الحياة التي عاشها، فالماضي بكلّ مقوماته فتح المجال أمام (السنوسي) في عمله الإبداعي الشعري إمكانية التواصل من جديد مع الجيل الجديد، ليكون ارتباطه به خلال فترة حياته مثار لذة تغري بمواصلة العملية الإبداعية، فأضحى الماضي عنده شيئا ساكنا في ذاته يقتبس منه ما يتوافق وانطلاقته الأدبية، وفي هذا السياق التأثيري في الإبداع، والرؤيا التي يتشكل منه، يقول (مطاوع الصفدي):" لا يمكن تأويل نص إلا باسترجاع السياق اللغوي والبيئي، والأنثربولوجي العام الذي نما وترعرع النص منه "(مطاوع، ١٩٨٤م).

أ . الماضي المشرق:

مفهوم الماضي عند (السَّنوسي) هو امتزاج التُّراث مع ذاته الأدبيَّة، والاجتماعيّة، والدِّينية ليجعل منه ملتمسا لبنائه متوافقا مع كينونته الأدبيّة والاجتماعية، ليعطي من

هذا المنطلق للتُّراث أبعادا تتحدد على أساسه محمولاته الأدبيّة في وعاء لغوي معاصر؛ لأنَّه أيقن في عمله الإبداعي الممتد في أعماله الشِّعرية " بأنَّ اللغة الأدبيّة الّتي تتناولها كل الطَّبقات، هي الّتي تعبّر أصدق تعبير عن الانفعال والوجدان"(إليوت، دون تاريخ). فلغته الأدبيّة نتيجة ذلك الإرث التّراثي المشرق، وما تحمله من رؤيا خرجت من رحم الواقع، والحياة المعاصرة إلى حدِّ الالتحام بها، ولعل أصدق شاهد إبداعيّ على هذه اللغة المحملة بهذا الإرث الحضاري قصيدة نداء (محمد بن علي،٢٠٠٢م) ، حيث يُظهر فيها استعمالاته الأدبيّة، والفنية لمختلف أشكال التراث الأدبيّ، فيقول:

بني وطني إنا على فجر نهضة تصد الدُّجى أنّى تدجَّى وتصدع
وللفجر في وجه الحياة أشعة تذيب الكرى عن ناظريها وتدفع
بكينا على الماضي كثيرا وإن يكن خطيراً فما يجدي البكا والتَّفجع
مضى السلف الأبرار يعبق ذكرهم فسيرواكما ساروا على الدّهر واصنعوا
وما الفخر بالماضي إذا لم يكن له من الحاضر الزّاهي بناء مرفّع

فـ(السَّنوسيّ) في قصيدة (نداء) يرجع إلى الماضي من أجل توظيفه في العملية الإبداعيّة، الَّتي لا تخضع للزمن النَّحويّ، بل يتجاوز من خلاله الماضي إلى مستوى دِلالي أوسع يتمثّل في إعادة خلق، وتشكيل القصيدة الزَّمنية هذا من جانب، ومن جانب آخر تأخذ منعطفا انعكاسيّا يُحيلها في نهاية الأمر الإبداعي بلورة رؤيا المستقبل الّتي يتطلع إليها (السَّنوسيّ)، وهي بناء الأوطان بقوة الأبناء يسيرون فيه سيرة السَّلف (وما قيمة الأوطان إن لم يكن لها رجال). فإشكاليّة تداخل الأزمنة الثَّلاثة الماضي، والحاضر، والمستقبل ولَّدت لديه هذا المنطلق الإبداعيّ؛ لأنَّ تداخل الأزمنة ارتبط بنصه الشعري من حيث صدق دلالته، بغض النظر عن العرضية الزَّمنية فيه، فـ(السَّنوسيّ) أدرك خلال تجربته الشِّعريّة الممتدة قرابة نصف قرن، بأنَّ الماضي هو القاموس الثَّري الَّذي يستخرج منه مفردات لغته الشِّعرية ليثري به الدِّلالات الفكريّة، والوجدانيّة، والشُّعوريّة، ويفجّر من خلال هذه اللغة نفوس المتلقين نحو الرُّؤيا الَّتي يريد بالإقبال على الواقع في العمل والبناء، فيقول:

خذوا بأكف الأسد من أسهم العلى نصيبا فإنَّ الحاضر اليوم أوسع
يد الدهر لا تسخو بمجد لعاجز ضعيف ولا تندى ولا تتبرع

وثمة أمر آخر يجب ذكره في هذا المقام، بأنَّ الماضي كما قلت سابقا باعث من بواعث الإبداع عنده هذا من جانب، إلا أن الماضي عنده في مجمل عمله الإبداعيّ لا يعتمد عليه في بعث واقع جديد يتطلع إليه في رؤياه، إلا إذا كان مقترنا بهمة ونية صادقة:

وما الفخر بالماضي إذا لم يكن له من الحاضر الزّاهي بناء مرفّع

فقصيدة نداء بهذا النسق الإبداعي الذي قدمه (السَّنوسيّ) تقوم على إرث الماضي بكل مقوماته بالتَّلميح دون التَّصريح بشكل من أشكاله؛ لأنَّه امتزج مع ذاته المتلمسة، والطامحة للبناء على أساس حضاري، فالماضي أكسبه بذلك أبعادا معرفيّة، وفلسفيّة، وفكرية تشتمل على كل خصائص الوجود الثَّقافي والعلمي، وبذلك ينتقي منه في عمله الإبداعي من أي طرف، وأي لون، وفي أي غرض لتشكيل الرُّؤيا(محمد بن علي،٢٠٠٢م).

ب . الماضي الديني:

أثر الماضي عند السنوسي لم يتوقف عند الماضي على إطلاقه في عمليته الإبداعية، وتشكيل الرؤيا بل تجاوزه إلى تخصيص المجال الديني ليكون واحدا من مرتكزات الرؤيا للحاضر، والمستقبل، فقد استثمره في إفراغ الحمولة المعرفية للنص الديني في سبيل تمرير رسالته ورؤياه، وفي الوقت ذاته يعمل من خلال هذا الماضي الديني توجيه المخاطب والمتلقي نحو فعل إنجازي معين، اعتمد على علائق إسنادية تجسد في العمل الإبداعي حقلا دلاليا مكون من مجموعة من المفاهيم تنبني على أساسها الرؤيا التي يريد أن يشكلها(أحمد حساني،١٩٩٤م) ، وخير ما يمثل ذلك قصيدة الرسالة والرسول(محمد بن علي،٢٠٠٢م). ، فيقول:

من الجزيرة من أرضي ومن بلدي تألق النور نور الحق والرشد
ومن رباها... رباها الطاهرات ثرى تنفس الصبح من بدر ومن أحد
نور تألق من نور فرق به قلب الحياة وبضَّ الصخر بالبرد
وفاض عبر شعوب الأرض مندفعا يحيي القلوب ويشفي ثغر كل صدي

جرى فأخضب الدنيا ندى وهدى تمازجا كامتزاج الروح بالجسد
وأشرقت (بابن عبدالله) وأتلقت (رسالة الله) زاه نورها الصمدي

فـ(السنوسي) بهذه الثقافة الدينية قد ألبس نصه الشعري انطلاقة قوية تنمي شبكة التبادل بين الألفاظ . نور تألق، بضّ به الصخر، يحيي القلوب، يشفي ثغر كل صادي . وتتفاعل من خلالها الدلالات والرموز، وتتبادل الأدوار في تشكيل الصورة الإبداعية، فهذه الصورة المرتكزة على الماضي الديني جسدت رؤيا السنوسي من جهة، وعبّرت عن الحدث الجلل الذي أحدثه مولد الإسلام على أهل الجزيرة والعالم وكيف قلب الحياة رأسا على عقب (نور تألق من نور)، فالمرتكز الديني في العمل الإبداعي عند السنوسي وحدّ الذات مع الموضوع بطريقة ارتكزت على امتصاص القيم الحضارية الخالدة التي أفرزتها المخيلة الشعبية الدينية عبر مسارها التاريخي الطويل، وإعادتها بشكل جديد يتجلى من خلاله، وكأنها تظهر أول مرة " فالذاكرة الدينية لا تكتفي بنقل معلوماتها، وإنما تعمل على إنتاج وقائع اجتماعية وحالات نفسية جديدة "(عبدالحميد، ١٩٩٨م).

فـ(السنوسي) يحيل الأثر الديني في قصيدة (الرسالة والرسول) إلى وثيقة شعرية تذكرية وتذكارية بما يستدعي تجديد الرؤية على نحو يعكس وضوحها وصواب منطلقها، فهو أدرك بهذه الرؤيا الشعرية الإبداعية ما يقوله الناقد (جابر عصفور) " بأن فاعلية الخيال مرتبطة باتساع الخبرة بالحياة المعاشة والقدرة على النفاذ إلى العلاقات الفاعلة في الأشياء، والعلاقات التي تربط بين الأشياء "(جابر عصفور،١٩٨٣م). فالمضمون الديني لديه في تجربته الشعرية إضافة إلى ما سبق تجاوز المقوم التاريخي الزمني، والمقوم التعليمي (الإخباري) ليؤدي دورا إبداعيا يتمثل بقوة الخيال، فيولد منه وظيفة الابتكار، ويبرز هذا في قصيدة ليلة الهجرة(محمد بن علي، ٢٠٠٢م) ، فيقول:

بين إشراقة الهدى من (حراء) وانطلاق الشعاع نحو (قباء)
ليلة ما تنفس الصبح مثل سناها على ثرى الصحراء
فردة فذة تنوء بسر أبيض في دجنة سوداء
جثمت حوله تضم جناحيها حنوا عليه كالورقاء
والسكون العميق يملأ قلب الأرض أبيض في دجنة سوداء
وعيون السماء من كل نجم رصَّدٌ للعصابة الرصداء
يطأ الأرض نورها في خفوت ويرى لائذا بكل خباء
كمَّ أنفاسه الدّجى واقشعر الليل رعبا واربدَّ وجه الفضاء
ومشت عصبة الجريمة والكيد إلى غاية لها نكراء

فقصيدة (ليلة الهجرة) تزدحم بالمفردات الدينية . (حراء، قباء، الرسول، النبيين) . التي تختبئ خلفها الرؤيا الأدبية، والفكرية، والجغرافية. فلفظ (ثرى الصحراء) وهو جزء لا يتجزأ من المكان الذي يعيش فيه السنوسي في قلب الجزيرة العربية، يحيل في جانبه الدلالي إلى كثير من السياقات المترابطة، والتي لا تنفصل عن بعضها البعض، السياق الأول: ديني؛ لأن مهبط الوحي هو (غار حراء) حيث كان يتصل (جبريل) عليه السلام بسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، ويبلغه الرسالة، والثاني: السياق الشعري؛ لأنه كان ينزل . الإلهام . على السنوسي في هذه البيئة الصحراوية فيتفاعل من خلاله مع بنيات الكلمة، ويجعله مجالا رحبا لخلق القوالب الشعرية، والصور الإبداعية التي تمثل رؤياه في هذه القصيدة وغيرها.

وثمَّة أمر أخر يجب أن نشير إليه، بأنَّ السِّياق الشِّعري أسبغ قصيدة (ليلة الهجرة) بهذا الموروث الديني جواً حليما، يقترب من أجواء الرومانسيين من خلال اقترانه بألفاظ، تدعم الرُّؤيا الأدبيّة، والفكريّة الَّتي يسعى إلى تأصيلها(السنوسي) . أبيض/ سناها/ ضوء/السُّكون/ عيون السَّماء . حيث تؤكد هذه الألفاظ، وما تشمله من ارتباطات، وسياقات نصيّة مساعدة، بأنَّ أرض الجزيرة من ليلة الهجرة النَّبويّة قد هجرت الظلم والشّرك، وهاجرت نحو العدل، والسُّمو، والارتفاع بكرامة الإنسان أينما كان نحو الحريّة، والكرامة الموصولة إلى مالا نهاية، حتى ولو ظهر الظلم بعض الأوقات، فيقول:

ليلة ما تنفس الصُّبح عن مثل سناها على ثرى الصَّحراء
إنَّها الليلة الَّتي ولد العالم في مهد فجرها الوضاء
لاح في ثغرها الفلاح على الكون وفاح الصَّلاح في الغبراء
وسمت في صباحها عزَّة الإسلام والمسلمين في علياء
واستدار(التَّاريخ) يملي على الدُّنيا سطور الرِّسالة الغبراء
وإذا تلكمو الصَّحاري حديث الفرس والرُّوم من قريب وناء

وإذا تلكمو (الجزيرة) يمتدُّ سناها عبر الذُّرى والسَّماء
وإذا (خالد) و (عمرو) و(زيد) فلك دائر على الأجواء
يرسلون الضِّياء في كلِّ أفق ويداوون كلَّ سقم وداء

و(السنوسي) إضافة إلى ما سبق، وواضح في سياقه الشعري لا يكتفي بهذه الرُّؤيا في المستوى السَّطحي للبناء الشِّعريّ، وإنَّما يتجاوزها في المستوى العميق إلى إسباغ البُعد الحضاري، والوجودي لأرض الجزيرة العربية . (واستدار (التَّاريخ) يملي على الدُّنيا) . وليس هذا فحسب بل هو الإمساك بإصرار على نبض التَّاريخ الديني، ونبض الإبداع في الوقت ذاته، فوصف الأرض بالألفاظ التي تحيل إلى التَّقديس، هو ردُّ فعل على الاقتلاع للظلم والشِّرك من جانب، والتَّمسك بالأرض؛ لأنَّه شكل من أشكال التَّمسك بالعقيدة من جانب آخر. فـ(السنوسي) بهذه الثَّقافة الدِّينية التي اعتمد عليها في فكره، ورؤياه الإبداعيّة الأدبيّة، يجعل منه بقوة الكلمة تأكيدا على الهويّة، وإصرارا على الانتماء الدَّاخلي (الرُّوحي)، والخارجي (الوعي، والفكر، والظروف الاجتماعيّة)، ليصبح بهذا متفقا في وعيه مع قول (منح خوري): " الشَّاعر وهو يعبر عن ذاته، إنما يعبر عن عصره ومجتمعه "(منح خوري،١٩٦٦م).

ثالثاً: الماضي التاريخي:

بعد أن عرضنا الأثر الديني في إبداع السنوسي، ومدى إسهامه في تشكيل الرؤيا الأدبية، يمكننا القول أنه لا يمكن أن نقرأ أي أدب خارج حدود الزمن، وهذا يتطلب منّا الوعي بعمق بأنَّ الأدب يتشكل من عناصر تدلّ على الزمن، كما إنه إنتاج فني في إطار زمني محدد، وبهذا تصبح فكرة الزمن عنصرا مهما من عناصر التعامل مع النصّ الأدبي، وعنصرا من عناصر إنتاج الرؤيا الأدبية والفكرية، وهذا يعني أنَّ النصَّ وقرائنه السياقية قد أنتج في ظروف معينة تكفل له التنقل داخل ثقافة عصر الشاعر أو المبدع، فكل عمل إبداعي خطابي . شعري أو نثري . محل اختراق للتعالق " الثقافي والاجتماعي والتاريخي والديني"(فريد زاهي، ١٩٩١م)، وهذا ما أدركه (السنوسي) في أعماله الشعرية وتشكيل رؤياه؛ لأنه أدرك أنَّ إبداعه لا يكتب له البقاء والأثر إلا من خلال اتصاله بعمليتي الامتصاص والتحول الجذريين، أو الجزئيين للعديد من الوقائع التاريخية الممتدة في نسيج أدبه، فحركة التاريخ عنده تمثل تاريخ إبداعه، لذا فهو يحث نفسه دائما ليكون نصه اكتشافا داخل حركة العصر وإنسانيته، ليسجل بالكلمة رؤاه في حركة أسلوبية تتشكل كما يقول (الجزائري): " منها الجزئيات بين الواقعي والمتمنى، بين المتخيل والمحسوس، بين الماضي والمستقبل، فينبض الإبداع بفيوضات الحياة اليومية "(محمد الجزائري، ١٩٧٤م).

وفيوضات الحياة التي تنبع من عند السنوسي في أعماله الشعرية من خلال الأثر التاريخي تتفق مع مقولة (أدونيس) في هذا المجال " فهي تضع واقعا وغيبا، صورة ومعنى في نظام لغوي، ورؤيا خاصة للعالم في تعبير خاص "(أدونيس،١٩٧٩م) ، وهذا التعبير الخاص الذي تميز به السنوسي عن غيره من شعراء الجنوب السعودي، وبهذا الكم النوعي الذي نجده في أعماله الشعرية الكاملة، جعل إبداعه وما يحمله من رؤيا للحاضر والمستقبل كما يقول (العشماوي) في موقفه من الشعر والحياة " ينبع من أعماق كيانه، ويستبطن ما هو إنساني فيها، وبذلك تخرج من مجرد التجربة التي تتعلق بحدود ذات الشاعر الضيقة إلى أفاق أرحب في التعبير عما هو إنساني عام "(محمد زكي،١٩٨١م).

وبتعبير أدق يمكن القول إنَّ رؤيا السنوسي من خلال الأثر التاريخي هي رؤيا تحويلية، تصهر الأثر التاريخي، والعالم في بوتقة حساسة تكوّن في إبداعه مبدأ الحلم والواقع، التغيير والمستقبل،الحرية والكرامة، الأمن والسلامة، الاستقلال وإثبات الرأي، وتبلور ذاتا جديدة تحمل خصائص من كليهما . الحلم والواقع . وهذا ما نلمسه في قصيدة جنكيز خان(محمد بن علي، ٢٠٠٢م.)، فيقول:

تكاد تستعر النيران ملء دمي ويصرخ القلب ملسوعاً من الألم
إذا أصخت إلى المذياع وانطلقت أمواجه تلفظ الأنباء كالحمم
(جنكيز خان) وهولاكو ولفهما وكلّ ما سجل التاريخ من نقم
عادوا وعادت مخازيهم يمثلها (ديجول) في قحة نكرا وفي نهم
الكفر يزحف والطغيان محتدم والشر يسخر بالأخلاق والقيم
والبغي بغي (فرنسا) يقشعر له جلد البرية حتى أوحش الأمم
هناك فوق ذرى (الأوراس) معركة وقودها عزة الإسلام والشمم

فالعنوان الذي اختاره (السنوسي) لقصيدته يحمل رمزا تاريخيا . (جنكيز خان) . له حضوره في وعي وتاريخ الإنسانية بعامة، والإنسان العربي والمسلم خاصة، ليربط من خلاله الحاضر بالماضي، ويجعل منه أيضا مجالا واسعا يتحول فيه الخطاب التاريخي إلى خطاب أدبي شعري موجه للأجيال الحاضرة واللاحقة، يكشف لهم منه بمساعدة السياقات النصية المصاحبة عن تلك الحقب السوداء والمعاناة التي مرّت بها الأجيال ولا تزال؛ لأن هذا الخطاب الإبداعي والرؤيا التي ينطلق منها السنوسي في لحظة الإبداع " يَعْتَبر بأنَّ الذاكرة التاريخية لا تكفي، بل يجب العمل منه على إنتاج وقائع اجتماعية وحالات نفسية جديدة تتوافق مع الواقع والحاضر "(عبدالحميد، ١٩٩٨م)، فالرؤيا الإبداعية بهذا الأثر التاريخي عنده كما يصفها (مرتاض) في إحدى دراساته: " هي نشاط إبداعي مبني على أنقاض أنشطة إبداعية أخرى اندثرت في حيز الذاكرة الذي لا حدود له "(عبدالملك، ١٩٩١م).

وثمة أمران مهمان في هذا النص يطالعنا فيهما (السنوسي) أيضا ليؤكد من خلالهما رؤياه المتمثلة بالربط بين الشخصية التاريخية القديمة (جنكيز خان)، صاحب الأحداث التاريخية ذات الأثر المروع في العالم الإسلامي القديم، والشخصية القيادية ذات الصفات نفسها في العالم الغربي الحديث (ديغول)، أولاً: رؤيا تأكيدية مفادها بأن الأثر والنتيجة واحدة حتى ولو اختلف الأشخاص، فأثرهم على مجريات الأحداث يسير بالجانب السلبي القتل، والتدمير، والهلاك لما يمثل فكر وثقافة الشاعر، والجانب الإيجابي لمن يمثل فكر (جنكيز خان) و (ديغول)، فيقول (محمد بن علي، ٢٠٠٢م):

والنار تلتهم الأرواح كاسحة والأرض تقذف بالأشلاء والرمم
والمسلمون الغيارى يبذلون دماً حراً يحررهم من ربقة الغشم
شبابهم وصباياهم وصبيتهم في الريف والسيف والآكام والقمم
يستقبلون المنايا في مثابرة ذودا عن الدين والأعراض والحرم
والثكل واليتم والبأساء قائمة في كلّ بيت على السكان منهدم
عارين إلا من الإيمان يشعلهم حمية في صراع الظّلم والظُلم

والأمر الثاني كما هو في السياق النصي من خلال بنائه العميق يشكل رؤيا القناعة بأن هؤلاء الأشخاص ومن سار في ركبهم قد فوتوا على الواقع الفكري، والثقافي، والاجتماعي فرصة المشاركة في تحمل المسؤولية، وحاولوا إرغام من عاش في واقعهم على الدخول من البوابة الخلفية . العبودية/ الاستعمار/ الفرقة . فلجأ كلُّ واحد منهم حسب واقعة إلى الخنق تحت سقف من الاضطهاد، والقمع والتجويع، والتهريج، رغم كلِّ هذه الأساليب يرفض واقع السنوسي هذا المبدأ القديم ممثلا (بجنكيز خان) والجديد (ديغول)، ويأبى الخنوع، ويقف في وجه الظلم حفاظا على النفس، والدين، والعرض، فالتاريخ وما يحمله من أحداث من خلال شخصية (جنكيز خان) و (ديغول) عند السنوسي تاريخ مظلم، أراد أن يجعل منهما مجالا واسعا لتشكيل هذه الرؤيا بروح جديدة ومضمون جديد، ودلالات جديدة، لتصبح جزءا حيويا من العالم الجديد الذي تصبو إليه ذاته، فالإبداع بهذا الأثر يتفق مع المقولة النقدية: " هو طاقة ارتياد وكشف "(أدونيس،١٩٨٣م.).

وطاقة الارتياد والكشف عند (السنوسي) من خلال الأثر التاريخي تأخذ في قصيدة (عقدة الأسى) حالة يأس وقنوط من الواقع الذي يعيشه العالم العربي وخاصة ما يحدث لأرض مسرى الرسول عليه الصلاة والسلام، مما يجعله يلجأ إلى التاريخ ليفرغ من خلال شخصياته ما يشاء من دلالات ومعاني تتناسب وطبيعة الواقع سواء في الجانب الإيجابي، أو السلبي، ويلبسها ما يشاء من رؤيا في قالب فني جديد، فيقول(محمد بن علي، ٢٠٠٢م):

أتريدين أن يكون بياني رائع اللفظ عبقري المعاني
كيف يا أمتي وأنىَّ وفي جنبيك جرح يهزني من كياني
كلما أبصرته عيناي فاضت بالأسى لاهبا وبالدمع قاني
أنطقيني إذا أردت بيوم (قادسي) مدمدم أرجواني
أنطقيني بوثبة ذات ومض واحللي عقدة الأسى من لساني

فعقدة الأسى عند السنوسي من الواقع المحيط به أثارت لديه الهوية التاريخية، وأثرها في تكوين الحياة السابقة المشرقة، لتولد لديه تنويرا فكريا ينمُّ عن مستوى

حضاري خلاَّق هذا من جهة، ويسهم في تشكيل الرؤيا الذهنية الأدبية التي تحاكي هذه العقدة، وتتوافق معها إما صعودا، أو هبوطا، أو تتقاطع معها بنفس الاتجاه من جهة ثانية، فيقول(محمد بن علي، ٢٠٠٢م):

لِمَ هذا وكيف؟؟ يا نسل عدنان وقحطان والسَّنا والسنان
أيعيث الذئاب فينا ونختار وننهار يا له من هوان
رحم الله (خالداً) و (المثنى) وابن (أيوب) والفتى (الحمداني)
فلقد ضعضعوا قوى كل دهقان وعلج وأنقذوا كل عان
حين كانت قوى الطغاة تهزّ الأرض من فارس ومن رومان

فالأثر التاريخي وما يحمله من معاني مثل لديه مصدرا من مصادر الإبداع والإلهام الشعري وتشكيل الرؤيا، فشخصياته في عقدة الأسى . (خالد) و(المثنى) و(ابن أيوب) و(الفتى الحمداني) . تأتي في فكره الإبداعي لكسر حالة الأسى التي يعيشها السنوسي، فهو لا يستطيع أن يتجاوزها مهما كان حجم هذه العقدة التي يريد أن يحاكيها، أو يفرغ فيها حمولته ورؤاه الأدبية والثقافية؛ لأن المركب التاريخي، والاجتماعي، والنفسي، والذهني يمثلان أحد شهوده في عمله الإبداعي، لينطلق منهما، أو منهم جميعا نحو الاكتشاف لا التأسيس كما يقول (زيرافا، ١٩٧٥م، محمد رشيد، ١٩٧٥م).

ويبدو أن السنوسي في (عقدة الأسى) قد فتح فضاءً خاصاً من خلال الأثر التاريخي، هذا الفضاء يفرض على المتلقي قراءة متأنية تنبع من عمق النص، وعلائقه المصاحبة، كونه انعكاسا لواقع الحياة التي تحيط به شرقا وغربا، عندها يستطيع المتلقي أن يسقط تأويله، وتفسيره الذي يريد، لتحصل وتتكون لديه اللذة الأدبية على حد تعبير(بارت، د.ت، كوهن، د.ت).وثمة أمر آخر ندركه من الأثر التاريخي في (عقدة الأسى) في تشكيل الرؤيا يتمثل في طبيعة الظرف التاريخي، والاجتماعي الذي يعيشه السنوسي، وما يناسبه من رؤية وصيغ تعبير، فسعى إلى إبداع ليس في مقدور أحد أن ينسبه إلى غير المرحلة التي يمثل قيمها فكرا وتجربة فنية ، نتيجة إدراكه لهذه الحقيقة عبَّر عنه بتصورات متعددة فيقول:

أفحق ؟ أن الشواهين نامت واستقرت مجاثم الغربان
وغدا الجو صافيا (للصهايين) وطاب الهوى (لجنكيز خان)
أفحق ؟ هذا وما زال في (القدس) فحيح من أرقم أفعوان
كذب المرجفون فالحق يعلو أبد الدهر من قديم الزمان

هذه التصورات الأدبية . أفحق ؟ أن الشواهين نامت /استقرت مجاثم الغربان . تؤكد الوشائج النصية التي تسري في إثراء التجربة الإبداعية، وتأصيل رؤياه لتجعلها . الوشائج . حالة متلاحقة من الإضافات الإنسانية، التي يحتكم فيها إلى ما تمثله من وعي التطور الجدلي، الذي لا يتحرك فيه الجديد باتجاه التناقض الكلي مع القديم الذي سبقه، بل يستوعب ما فيه من جوانب التَّواصل الحي عندها تتضح الرؤيا الأدبية والفكرية، حيث يقول في هذا الاتجاه (السياب): " الشيء الجديد هو دائما وليد الشيء القديم، وقد كان كامنا كالجنين في أحشائه ذات يوم، وأن في الشيء الجديد الكثير من ملامح الشيء القديم .... من ملامحه الحسنة التي استطاعت أن تقاوم الفناء "(بدر شاكر،١٩٥٦م).

فالرؤيا لدى السنوسي من خلال الأثر التاريخي في (عقدة الأسى)، تتجسد في الإيحاء بأهمية الماضي التاريخي بكلِّ مقوماته، على استيعاب أبعاد تعبيرية رمزية يمكن توظيفها من أجل تقريب الموقف الشعوري، الذي يطمح إلى إيصاله للمتلقي، فهو حاذٌّ التعبير من أجل تأكيد المكونات الأولية للعناصر المعرفية للأصالة في الرؤيا، وفي أدوات المقاربة فيعيد ترتيبها وعلاقاتها بفضاء نصه كي يتأصل فيه الحديث، ويتحدث فيه الأصيل في أغلب نصوصه الشعرية التي اعتمدت على امتصاص الأثر التاريخي من جميع حيثياته التي تنطبق على الواقع الذي يحاكي.

رابعا: الحاضر:

أ . الحاضر القومي والاجتماعي:

يظهر لنا عند السنوسي فيما سبق عرضه بأن الأثر الأدبي، والديني، والتاريخي، قد شكَّل لديه في أعماله الشعرية ظاهرة فنية ذات أثر واضح في بنية خطابه الشعري، حيث أعاد من خلاله كشف الماضي في ضوء تجليات الواقع، أو الحاضر الذي يعيشه بأبعاده الإنسانية، والاجتماعية، والاقتصادية والأدبية، والقومية،

فأعاد تشكيله من جديد وفق رؤيا شعرية تمتص المحمولات الدلالية الموروثة، لتكشف عنده عمق التجربة الشعرية، وخصوصيتها في تعبيره عن الواقع، وحاضر الحياة، فاستطاع بناء علاقة جدلية بين رؤياه والماضي بكلِّ محمولاته، فردم بذلك المسافة السحيقة التي كانت تفصل بينهما، فجعل منهما بناء وكيانا بنيويا متكاملاً، مع العناصر الفنية الأخرى التي تحتوي عليه إبداعاته الشعرية التي تسير في اتجاه قول القائل:"إن الأطر المعرفية، والأيديولوجية تدخل إلى حدٍّ كبير في اختيار الأبنية اللغوية، وفي تفسير دلالتها "(بطلر، د. ت).

والحاضر القومي عند (السنوسي) يتجلى في رؤياه من خلال مكونه الأدبي، ليتفق بذلك مع الطرح الذي قاله (نورثروب فراي): " هو حلم الإنسان، وإسقاط تخيلي لرغباته ومخاوفه، وأنَّ الأعمال الأدبية إذا أخذت معا تؤلف رؤيا إجمالية، رؤيا نهاية الصراع الاجتماعي، رؤيا الرغبات المشبعة في عالم بريء، رؤيا المجتمع الإنساني الحرّ "(ريتا عوض،١٩٧٨م) ، فـ(السنوسي) لا يكتفي من الواقع، أو الحاضر الذي يعيشه بالتعبير عمّا فيه، بل يفرغ جهده ليخلق بإبداعه الممتد في أعماله الشعرية أشياء بطريقة جديدة، لذلك تكون الرؤيا هي صاحبة المبادرة في بناء الحاضر القومي، ومناخاته المستقبلية، وهي رؤيا واسعة تشمل: الكون، والإنسان، والحضارة الإنسانية، والوجود، فأعماله الشعرية حافلة بهذه الرؤيا الشمولية، ومثال ذلك الذي نجده في قصيدة العالم العربي(محمد بن علي، ٢٠٠٢م) ، فيقول:

خلفت كيد الحاسدين ورائي ونفضت من رهج الغبار ردائي
وتطايرت من منكبيّ عجاجة وعثاء من أثر الخطى الوعثاء
وأنرت للمتخلفين طريقهم لما أراد هواؤهم إطفائي
أعلنت حقي في الحياة وآمنت نفسي بكل حقيقة غراء

وهذه المعاني التي يركز عليها السنوسي في طرحه النصي . العالم العربي . يحاكي العالم الحاضر بصورة (ما)، فهو يريد أن يخرج من الواقع والحاضر المؤلم إلى عالم مليء بالحياة والأمل " أعلنت حقي في الحياة / وآمنت نفسي بكل حقيقة " فاختار لإبراز هذه الرؤيا التجربة الإنسانية الحانية المشرقة في واقعه لتكون مثالا ورؤيا حيّة في التعبير والإبداع، فهو يتمتع بقدرة إبداعية تستشعر الحاضر، وتستشرف المستقبل؛ لأنه على اتصال دائم بعوامل لا شعورية تختلف عن عوامل الإنسان العادي على حدِّ تعبير (أنطوني شتور) القائل: " إن العوامل الشعورية عند المبدع موضع تقدير الرجل العادي، وإن كانت مبشرة بحدوث تغيرات في المواقف الاجتماعية؛ لأن المبدع هو طليعة زمانه، وهو أداة الحياة النفسية اللاواعية والقائم على تشكيلها، وهي أحيانا حمل ثقيل تحتم عليه التضحية بالسعادة، وبكل شيء يجعل الحياة في نظر الإنسان العادي جديرة بأن يحياها "(أنطوني،١٩٩٧م).

فسياق رؤيا الحاضر عند السنوسي في أعماله الإبداعية بعامة، ونص (العالم العربي) خاصة هي رؤيا تحويلية كما قلت سابقا تصهر الماضي، وما يحمله من خصائص في بوتقة حساسية جديدة تخلق لديه وللمتلقي مبدأ الحلم والواقع، ومن القديم والجديد ذاتا جديدة تحمل خصائص من كليهما يتطلع إليها السنوسي، وهي الحياة الإنسانية الكريمة للإنسان العربي، فيقول(محمد بن علي، ٢٠٠٢م):

تأبى العروبة أن نكون مطية لتنازع النزعات والأهواء
والليث أكرم أن يكون ضحية وأجلُّ من رسن ومن أعباء
نسج الضياء الظل وانتشر السَّنا ومحا الهجير برودة الأفياءِ
(العالم العربي) ضمَّ رسالة كبرى ونسل غطارف عظماء
(عرب) بنو الدنيا بناء محكما (بالعدل) وهو أساس كل بناء
سطعوا فأشرقت الحياة بنورهم وزهت (بإنسانية) سحَّاء
ملكوا فما ملك الغرور طباعهم وعلوا فما وطئوا جبين حياء
ما زال في يده (الكتاب) ولم يزل سحر الأبوة في دم الأبناء
(العالم العربي) قبلة خاطري ومطاف أخيلتي وغار (حرائي)
ألقاه في لمح الكواكب والدجى يرنو إلى إطراقة الشعراء

فالحاضر في أعماله الأدبية هو المجال الحيوي الذي تتحرك فيه رؤياه؛ لأنه المعنيّ بالتقويم والتغيير، ولهذا فإنَّ إبداعه الأدبي الشعري قد زجَّ بنفسه في أتون الصراع الخارجي رافضا أن ينكفئ على ما هو ذاتي أو شكلي أو وهمي، أي أن إبداعه الشعري، وما ينطلق من رؤيا يحقق وظيفة اجتماعية تحررية حياتية جمالية ذات مضمون

تغييري، وهذا ما نلمسه في عمله الشعري من خلال قصيدة حطم المارد القيود (محمد بن علي، ٢٠٠٢م)، فيقول:

هتفت والشعور رَوْح وراح ويك غرد فقد أضاء الصباح
الصباح الذي له من منى النفس انبلاج ومن هواها انصياح
قف على قمة الزمان مع التاريخ واهتف يهزُّك الإرتياح
وتأمَّل شواطئ (النيل) والبشرى على ضفتيّه والأفراح
هدأت ثورة الخضمِّ وقرت ونجا بـ(السفينة) الملاّح
وثبت (مصر) وثبة في سماء يحسد البرق في مداها الرياح
إنها وثبة يرن صداها عاليا ملؤها العلا والنجاح
هزت (الغرب) في محافله الكبرى وقد صفقت من الشرق راح
وعلت راية (العروبة) شماء يزين السماء منها وشاح
عالجت جرحها أساة بنيها وانتهى من علاجه الجراح
وسقاها دم الحياة شباب دمه في ترابها نضاح
ودماء الشباب نور ونار ومناها توثب وجماح
عبّروا عن مرادهم في (جلاء) يدعم الحق في سناه الكفاح

فالحاضر الذي يصوره في (حطم المارد القيود) يمثل في سياقه النصي تركيباً جديداً منسجماً مع الموروث الجماعي، ليشكلان حقيقة ينتظرها الواقع العربي، ليسد فراغا عنده، وتحتل مكانتها وسط منظومته الفنية والفكرية؛ لأنَّ الفنان المبدع الذي يتلمس واقعه، وحاضره الاجتماعي، والقومي كما فعل السنوسي لا ينشأ من تلقاء نفسه، بل هو الأمل الذي تترقبه الحياة الاجتماعية العربية بجميع أطيافها السياسية والاقتصادية واليومية.

فكلُّ قيمة يحملها السنوسي في إبداعه الأدبي والشعري، ستظل ذاتية في وعيه كامنة فيه، لكن بنزولها إلى الحاضر وواقعه تصطبغ بالصبغة الاجتماعية القومية، كون هذا الأخير هو مصبها النهائي فتكتسب جدارتها الاجتماعية(صلاح فضل،١٩٧٨م)، والرؤيا والتطلعات التي يرنو إليها السنوسي في (حطم المارد القيد) قفزة في تدعيم المفهومات السائدة من جانب، وتغيير في نظام الأشياء من جانب آخر(أدونيس،١٩٨٣م)، لهذا جاءت الصور والأخيلة الشعرية متوائمة مع هذه التطلعات الإبداعية والبنيوية:(الصباح الذي له من منى النفس انبلاج / ومن هواها انصياح.... قف على قمة الزمان مع التاريخ/ واهتف يهزُّك الارتياح).

وفي الجانب الاجتماعي لا أحد ينكر أن الشعر تجربة روحيّة، وجمالية تتصل بأعمق مكونات المجتمع الذي يعيش فيه الأديب، فيستخدم لهذه المكونات أقرب ألفاظها، وكلماتها إلى الحسِّ، وأكثرها قدرة على الترميز والإشعاع بهذه المكونات(فراس السوّاح، ١٩٩٧م)، وهذه النظرة النقدية التقطها (السنوسي) في أعماله الأدبية والشعرية، لتكوّن لديه رؤيا خاصة توجه بعض سلبيات الحاضر الاجتماعي، مستندة إلى خلفية أدبية، وتاريخية، واجتماعية تساندها. وثمة أمر أخر نجده عنده في هذا المجال يتجلى بتبني رؤية الوسط الاجتماعي الذي ينتمي إليه لكن بالجانب الإيجابي، وهذا الشكل جاء بشكل ضمني على اعتبار أنه وسيط ما بين مجتمعه، وعالمه المادي الذي يعيش فيه، فهو لا يتأمل الوسط الواقعي والمادي بشكل مباشر، ولكنه يكوّن عنه صورة تساهم فيها العناصر الذاتية والموضوعية، وليس من الضروري أن تتوافق، أو تتطابق هذه الصورة مع الواقع الاجتماعي نفسه، وهذه الرؤيا المركزية في أدبه الاجتماعي تجلت في قصيدة لكل صابونة ليفة(محمد بن علي، ٢٠٠٢م)، فيقول:

أصدقائي أم أصدقاء الوظيفة أنتم يا ذوي النفوس الضعيفة
الأولى تهزأون بالمثل العليا وتلهون بالمعاني الشريفة
بسمات ملّونات وأخلاق وصوليّةٍ غلاظ سخيفة
ونفاق ملوّن تخجل الحرّ باء منه فتنثني مكسوفة
تتدلى وتستكين وتنماع وتغدو لكل صابون ليفة
فإذا ولّت الوظيفة ولّوا وأثاروا عليك حربا عنيفة

فالسنوسي بهذه الرؤيا النقدية الاجتماعية التي التقطها من وسطه وبيئته العملية يضيف إلى مكونات ومرتكزات إبداعه الشعري الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه، وهذا النسق التقريبي للبناء الشعري عنده يقترب من واقع المنهج البنيوي التكويني الذي صاغه غولدمان(عبدالإله محمد، ١٩٦٩م) ، لكن السنوسي تخلص من تبني هذه الرؤيا الممنهجة التي دعا إليها (لوسيان غولدمان) إلى الدعوة الإنسانية العامة؛ لأنه يرفض هذه السلوكات

الاجتماعية من جانب فهو عنده " خلق يشمئز منه كريم النفس..."(محمد بن علي، ٢٠٠٢م) ، ويناصر القيم الاجتماعية الجديدة والطبقات الصاعدة التي تبشر بالمستقبل من جانب آخر.

ب . الحاضر الأدبي:

في الأعمال الشعرية نجد (السنوسي) فيها قد بقي مخلصاً للحرف الذي أبدعه من أعمق أعماق روحه المضطرم، المصطخب، الزاخر بالأنواء، وبقي حاملا لواء الشعر على كتفيه، ممعنا في حمله حتى آخر شهيق، وزفير على قمة الإبداع الأدبي المنشود، ومع أنه من أنصار القريض، وأنصار عمود الشعر العربي الأصيل، فقد ربط ربطا عضويا بين الأصيل التراثي، والشعر المعاصر . المحافظ . الذي يواكب حركة الواقع، والحاضر، والمستقبل، ومتغيراته، ومدَّ له جسور المقاربة والتضايف الإبداعي الجميل بين الشكل التراثي، والجديد الملتزم محققا بذلك رؤية أدبية تنضاف إلى ما قبلها، فـ(السنوسي) أدرك من خلال تطلعاته الأدبية، والنقدية الاستشرافية إلى أن المحافظة على شكل القصيدة الأدبية التراثية يخلق عند المبدع، والمتلقي على السواء حالة من التوازن الجسدي، والمعنوي تتفق وعالمها. فمعمار القصيدة عنده لا يقوم عنده على الوزن وحده، بل يقوم على بنية الشعر بحرفيتها، وفي الصياغة الشفيفة، وانتظام المعنى في رونق اللغة التي يختار الملائم من الألفاظ لكل ضرب من المعاني، وكأنه بذلك يعاود قول (عمر بن بحر) الذي يقول : " واللفظ للمعنى بدن، والمعنى للفظ روح "(الجاحظ، ١٩٦٥م، الجاحظ، ١٩٩١م). وهذه الرؤيا النقدية التي يتبناها (السنوسي) نجدها حاضرة في قصيدة (الشعر الحر)، فيقول:

لا العود عودي ولا الأوتار أوتاري ولا أغاريدكم من شدو أطياري
من أين جئتم بهذا (الطير) ويحكمو؟! لا الريش ريشي ولا المنقار منقاري
إني أرى في جناحيه وسحنته سمات (إليوت) لا سيماء بشار
ألبستموني ثيابا لا تشرّفني كأنها فوق جسمي حبل قصّار

فالسنوسي في هذه الرؤيا يطرح من وجهة نظره أخطر ما تلقاه الشاعر العربي الحديث من مؤثرات وقوالب وأساليب هدمت نظرية عمود الشعر التي كان يتبناها الشعراء في القديم، وأخذت بمقولة (إليوت) الوافدة من الغرب، وسارت على نهجه بكلِّ شيء، فلم يعد الشاعر في نظره ورؤياه يسوق فكرته، أو يعبر عن عاطفة بصورة مباشرة، على عكس أمر الشعر العربي القديم ومن سار على هديه، بل صار . الشاعر الحديث . يلجأ لنقل انفعالاته إلى عقل القارئ والمتلقي إلى وسيط هو " هو مجموعة من الموضوعات، موقف سلسلة من الأحداث "(ويمزات، و بروكس، ١٩٩٧م)، وهذا الشيء نجده في رأي (جوزيف فرانك) الذي يتوافق مع رؤيا (السنوسي) في هذا الشعر . الشعر الحديث . الذي يتميز بشكل جمالي يعتمد على منطق مكاني، حيث صار يتطلب من القارئ إعادة تنظيم كامل لتفكيره، في اللغة التي باتت في القصيدة الحديثة . عاكسة . وأصبحت الرابطة بين المعاني فيها . أي في القصيدة الحديثة . لا تتم إلا بإدراك القارئ للمجموعات الكلامية في آن واحد من حيث المكان، فيقول: " ونحن عندما نقرؤها متتالية من حيث التسلسل الزمني فإنها لا تملك أي علاقة مفهومة بين بعضها والبعض الآخر " (شورر ،ومايلز، وماكنزي،١٩٦٦م، وياكبسون، ١٩٨٨م،وتودروروف، ١٩٨٧م).

فواقع الحاضر الأدبي وخاصة الشعر وما يحمله من مستجدات على فكرته وأسسه، قد فرض على إبداع (السنوسي) رؤيا النقد الشعري من خلال الشعر نفسه، حتى يصل بالمتلقي إلى قناعة يشعر من خلالها بسعة إطلاع السنوسي الثقافي هذا من جهة، ومن جهة ثانية هذا الأسلوب الشعري، والأدبي أقوى في التعبير، والتغيير عند معشر الكتاب والأدباء؛ لأنه ينطلق من رؤيا أدبية صرفة ترجع في أصولها إلى فكرة جلالة القديم وعظمه ،فيقول في قصيدة (الشَّعر الحُر):

ما الشعر؟ هل هو ألفاظ مسيّبة بلا قيود ردي للمنطق الهاري
الشعر هندسة كبرى تكاد ترى في النسج واللفظ منه روح فرجار
والوزن للشعر روح وهي إن فقدت أضحى جماداً بلا حسّ كأحجار
قصيدة النثر مثل المشي جامدة والشعر كالرقص في ترنيم قيثار
ورب حرف صغير الشأن يرفضه والشعر كالرقص في سيقان أبكار

فالسنوسي في واقعه الأدبي والإبداعي يرفض بشكل لا يقبل للشك (شعر الحداثة) الذي لا يلتزم بقوانين

عمود الشعر، وخاصة قصيدة النثر الذي ناصرها (إليوت) وأتباعه، وهو بذلك يسير مع مقولة الشاعر العراقي (بدر شاكر السياب) التي ترفض هذا الشكل الأدبي في بداية حياته الإبداعية، وتقول: " أنا ضد الشعر الذي بدون وزن "(حسن الغرفي، ١٩٨٦م)؛ لأن الوزن عند (السياب) ومن بعده (السنوسي) روح فإن فقده فيكون فقد أعزّ شيء لدى القصيدة، فهو في مسألة الرؤيا الأدبية الشعرية العربية أكثر وضوحا، وتحديداً من غيره من الشعراء والنقاد، وأكثر ارتباطا بالمفهوم الأدبي، والشكلي للشعر العربي؛ لأنه يؤسس من واقعه الأدبي والمعرفي إلى تحويل الرؤيا الشعرية إلى إجراءات نقدية قابلة للتطبيق على الشكل الأدبي الذي تتبناه رؤياه الفكرية، والثقافية في الحاضر والمستقبل.

الخاتمة

بعد البحث في مرتكزات الرؤيا في التشكيل الإبداعي، لدى الشاعر محمد بن علي السنوسي، نجد أن الماضي الديني، والتاريخي، والماضي المشرق، لم يسهم فقط في إنجاز اللغة الشعرية الموحية المرتبطة بالتجربة الشعرية المستقاة من الحاضر الذاتي والجماعي، أو الصورة ذات التشكيلات المفتوحة على بلاغة من صياغة الهم الشعري المتخلق من الموهبة، والذوق والرؤية، أو الموسيقى المتساوقة مع طقوس الفكرة الغازية للروح، وإشعاعات الوجدان المنتفضة ضد السكون، وإنما كان للماضي الديني، والتاريخي، والماضي المشرق قدر معتبر، وقسط وافر في بناء العمل الأدبي لدى السنوسي، وتشكيل تضاريسه من عدة جوانب منها: المعجمي والأسلوبي، والتصويري، والإيقاعي.

فمرتكزات الرؤيا عند السنوسي في أعماله الشعرية سواء أكانت ترجع إلى الماضي، أو الحاضر لم تكن وليدة الترف الفكري، وإنما كانت لحاجة ملحة لديه في عمله الأدبي، في بعث وتحريك وتكوين الرؤيا، فهي بالنسبة إليه الأنموذج والمثال، والملجأ، والملاذ يعبّر بواسطته عن جراح الذات والجماعة، وما يصاحبه من تصدعات للواقع الذي يعيش، ويجسد من خلاله كل ما يحيط بالمجتمع من قهر اجتماعي، وروحي نتج عن اختلال في القيم والفساد الاجتماعي، ويفضح الاستبداد وضياع الحقوق وغياب العدل، فاستعان به على الخروج من هذا الألم إلى رحاب الخيال الواسعة النقية ليجابه كل دواعي الحتمية التي يعاني منها المجتمع، في الجانب الاجتماعي والفكري، والحضاري والأدبي وكذلك الإبداعي.

قائمة المراجع

[١] أدونيس: الثابت والمتحول، د.ط، بيروت، دار العودة، ١٩٧٩م.

[٢] أدونيس: زمن الشعر، ط٣، بيروت، دار العودة، ١٩٨٣م.

[٣] أرسطو: فن الشعر، ط٢: ترجمة: عبدالرحمن بدوي ، بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٣م.

[٤] إليوت، ت . س : مقالات في النقد الأدبي، دون طبعة، ترجمة: لطيفة الزيات، القاهرة، دار الجيل للطباعة، (د.ت).

[٥] إليوت، ت.س: ملاحظات نحو تعريف الثقافة، ط١، ترجمة: شكري عياد، القاهرة، د. مطبعة، (د.ت).

[٦] بارت، رولان: لذة النص، د. ط، ترجمة: فؤاد الصفا، والحسن سبحان، المغرب، دار توبقال للنشر، د.ت.

[٧] البحراوي، سيد: علم اجتماع الأدب، ط١، الشركة المصرية القاهرة، العالمية للنشر، ١٩٩٢م.

[٨] بطلر، كريستوفر: التفسير والتفكيك والأيديولوجية (ودراسات أخرى)، ط١، ترجمة وتحقيق: نهاد صليحة، سناء صليحة، سارة عناني، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د.ت).

[٩] بورايو، عبدالحميد: البطل الملحمي والبطل الضحية في الأدب الشفوي الجزائري (دراسة حول خطاب المرويات الشفوية الأداء) ط١، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ١٩٩٨م. ١١

[١٠] تودروروف: الشِّعرية، د.ط، ترجمة: شكري المبخوت، ورجاء بن سلامة، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، ١٩٨٧م.

[١١] ثابت، محمد رشيد: البنية القصصية ومدلولها

في حديث عيسى بن هشام، ط١، د.مكان، الدار العربية للكتاب، ١٩٧٥م.

[١٢] الجاحظ (أبو عثمان عمر بن بحر،ت ٣٥٥ هـ) : الحيوان، ط٢، مصر، مطبعة الحلبي ١٩٦٥م.

[١٣] الجاحظ (أبو عثمان عمر بن بحر،ت ٣٥٥ هـ) رسائل الجاحظ، ط١، تحقيق: عبدالسلام هارون ، بيروت، دار الجيل،١٩٩١م.

[١٤] الجزائري، محمد: دراسات نقدية معاصرة في الشعر العراقي الحديث، ط١، بغداد، إصدار وزارة الثقافة، سلسلة الكتب الحديثة، ١٩٧٤م.

[١٥] الجمحي، ابن سلام : طبقات فحول الشعراء، د.ط، شرح وتحقيق: محمود محمد شاكر، القاهرة، مطبعة المدني، ١٩٧٤م.

[١٦] حساني، أحمد: مباحث في اللسانيات، ط١، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ١٩٩٤م.

[١٧] خوري، منح: الشعر بين نقاد ثلاثة، ط١، بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٦م.

[١٨] زاهي، فريد: علم النص، ط١، المغرب، الدار البيضاء، دار توبقال، ١٩٩١م.

[١٩] السنوسي، محمد بن علي: الأعمال الشعرية الكاملة، ط٢، السعودية، منشورات نادي جازان الأدبي،٢٠٠٢م.

[٢٠] السوّاح، فراس: الأسطورة والمعنى دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية، ط١، دمشق، دار علاء الدين، ١٩٩٧م.

[٢١] الشوباشي، محمد مفيد: الأدب ومذاهبه، ط١، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للنشر والتأليف، ١٩٧٠م.

[٢٢] شورر، تبويب مارك ، وجوزفين مايلز، وجوردن ماكنزي: أسس النقد الأدبي الحديث، د.ط، ترجمة: هيفاء هاشم، مراجعة، د.نجاح عطار، دمشق، مطابع وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي، ١٩٦٦م.

[٢٣] العشماوي، محمد زكي: موقف الشعر من الحياة والفن في العصر العباسي، ط١، لبنان، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨١م.

[٢٤] عصفور، جابر: مفهوم الشعر " دراسة في التراث النقدي " ط٣، بيروت، دار التنوير،١٩٨٣م.

[٢٥] عوض، ريتا: أسطورة الموت والانبعاث في الشعر العربي الحديث، ط١، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٨م.

[٢٦] الغرفي، حسن: كتاب السياب النثري، ط١، فاس، منشورات مجلة الجواهر، مطبعة البلابل، ١٩٨٦م.

[٢٧] فضل، صلاح: منهج الواقعية في الإبداع الأدبي، ط١، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٨م.

[٢٨] الفهري، عبد القادر الفاسي: اللسانيات واللغة العربية، ط١، لبنان، بيروت، منشورات عويدات، ١٩٨٦م.

[٢٩] كوهن، جان: بنية اللغة الشعرية، د.ط، ترجمة: محمد الوالي، ومحمد العمري، المغرب، دار توبقال للنشر.(د.ت).

[٣٠] محمد، عبدالإله: نشأة القصة وتطورها في العراق، ط١ بغداد، مطبعة شفيق، ١٩٦٩م.

[٣١] هويمان، داني: علم الجمال (الماركسي اللينيني)، ط٢، ترجمة: ظافر الحسن، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتَّوزيع،١٩٧٢م.

[٣٢] ويليام. ك. ويمزات وكلينث بروكس: النقد الأدبي تاريخ موجز(النقد الحديث) ط١، ترجمة: حسام الخطيب، ومحي الدين صبحي، سوريا، مطبعة دمشق،١٩٧٧م.

[٣٣] وادي، طه: جماليات القصيدة المعاصرة، ط١، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨١م.

[٣٤] ياكبسون، رومان: قضايا الشعرية، ترجمة: محمد الوالي، ومبارك حنون، د.ط، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، ١٩٨٨م.

[٣٥] اليافي، نعيم: أوهاج الحداثة، ط١، سوريا، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٣م.

[٣٦] البصير، محمد مهدي: " جولة في الشعر العراقي الحديث "، مجلة دار المعلمين العالية، بغداد، حزيران، ١٩٥١م.

[٣٧] زيرافا، ميشيل: " الرواية والمجتمع "، ترجمة:

جمال شحيد، مجلة الآداب الأجنبية، العدد الرابع، نيسان، ١٩٧٥م.

[٣٨] السياب، بدر شاكر: " مجلة السينما حول (الشعر القديم الجديد) "، العدد ٤٢، تموز. ١٩٥٦م.

[٣٩] شتور، أنطوني: " فرويد ويونغ ومفهوم الشخصية في العبقرية "، سلسلة عالم المعرفة، المجلد الثالث، ١٩٩٧م.

[٤٠] الصفدي، مطاوع: " استراتيجية التسمية (التأويل وسؤال التراث "، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد ٣٠ / ٣١، ١٩٨٤م.

[٤١] مرتاض، عبدالملك: " فكرة السرقات الأدبية " (علامات في النقد الأدبي) مجلة المجلة، مايو، ١٩٩١م.

The Formation of the Pillars of the Vision in the Poetry Mohammed bin Ali al–Sanusi, "Critical Reading"

K. A. Abou Samhadana

Faculty of Art –sabia-Jazan university –SA

Abstract

The researcher finds that the relationship between the old and the new is very strong due to the human communication in different intellectual, religious, political, literary, and historical fields. Muhammad bin Ali (Al-Snoussi) invested this in his poetic works to form the literary vision. He depended on this to form the intellectual vision on many foundations including historical and religious aspects; the social context in which we live; and the bright past and present literature in all aspects.

In this aspect, the poet Al-Snoussi reveals to us that the literary pillars in the work of literature are the result of the need for creation, moving and forming the literary content through which he expresses the personal and social wounds, and the associated cracks of reality in which we live on the one side. On the other side, he embodies what is surrounding his society, such as social and spiritual suppression, which resulted from disturbed values and social corruption. In this way, he exposes the ways of tyranny, loss of rights and absence of justice, in a pure literary manna.

Keywords: The Formation of the Vision - Poetry - Sanusi - Critical Reading - Up grading literary